

رياحيات

صلاح جاهين

تقديم يحيى حقي

مقدمة

الرباعيات هي أحب قوالب الشعر عندي؛ لأنها تعين على نفي الفضول وعلى التحرر من أسر القافية، فتجيء كل رباعية بمثابة الومضة المتألقة، أو بمثابة الحجر الكريم، قيمته في اختصاره إلى قلبه وصقله لا في كبر حجمه.

وقد يتوهم المتعجل أن أضعف بيت في الرباعية هو بيتها الثالث غير المقفى، ولكنه في نظري عمادها. ففي البيتين الأول والثاني عرض لأوليات الموقف، وفي البيت الثالث ارتفاع مفاجئ إلى قمة. قد تبدو للنظرة الأولى أنها جانبية ليتبعه فوراً من شاهر كأنه طعنة خنجر يختتم بها البيت الرابع فصول المأساة. البيت الرابع هو دقة المطرقة على السندان بعد أن كانت مرتفعة في الهواء لذلك أكره للبيت الرابع أن يجيء على صيغة الاستفهام لأن حبله ممدود.

أسارع هنا لأستشهد برباعية في هذا الديوان الصغيرة الحجم القوي الأثر كأنه "قنبلة يدوية" الذي أخرجه سنة ١٩٦٣ الفنان الشاعر الأستاذ صلاح جاهين باللغة العامية والذي يسعدني اليوم أن أقدمه للقراء.

الرباعية السابعة تقول :

"خرج ابن آدم من العدم، وقلت ياه..

رجع ابن آدم من العدم وقلت ياه..

تراب بيحيا وحي بيصير تراب

الأصل هو الموت ولا الحياة ؟

عجبي."

فإني أحس أن البيت الثالث ليس هو حركة الارتفاع، بل هو حركة السقوط، من شاهر هو الختام، والسؤال الذي جاء بعده لغو، يزيد من ضعفه أنه جاء على هيئة استفهام حبله محدود.

وينبغي كذلك أن لا يكون البيت الثالث استمرار لعرض الأوليات الواردة في البيتين الأول والثاني بل تتمثل فيه كما قلت حركة جانبية مفاجئة، وهي في نظري حركة ارتفاع ليتحقق بها طعنة الخنجر الذي يهوي بها البيت الرابع.

وهذا العيب يتمثل مع الأسف في الرباعية الأولى لصلاح جاهين التي تقول :

"مع إن كل الخلق من أصل طين

وكلهم بينزلوا مغمضين

بعد الدقايق والشهور والسنين

تلاقي ناس أشرار وناس طيبين

عجبي.."

فالبيت الثالث هنا لغو لأنه استمرار في العرض، لا تتمثل فيه حركة جانبية وزاد من ضعف هذا البيت الثالث أنه جاء على روى الرباعية مع أن الأصل فيه، وحلاوته، أن يكون على خلافها. يؤسفني أن أكون قد بدأت بالنقد. هكذا شاء استطراد الكلام. اصبر قليلا تجدني من أشد المعجبين بصلاح جاهين وديوانه "الرباعيات".

الكمال الذي أنشده يتمثل في الرباعية الآتية :

"دخل الشتا وقفل الببيان ع البيوت

وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت..

وحاجات كثير بتموت في ليل الشتا..

لكن حاجات أكثر بتفرض تموت

عجبي.."

في البيتين الأول والثاني عرض للأوليات، والبيت الرابع - دقة المطرقة - لم يتحقق أثره إلا لأن البيت الثالث "الخارج عن الروي" قد خدعنا بتأكيده أن أشياء كثيرة تموت في الشتاء. فإذا بنا نفاجاً كأننا نسقط من شاهق أن أشياء أكثر ترفض أن تموت في الشتاء.

وانظر أيضاً إلى الرباعيات الآتية :

"مرحب ربيع مرحب ربيع مرحبة

يا طفل ياللي في دمي ناغي وحباً

علشان عيونك يا صغير هويت

حتى ديدان الأرض والأغربة

عجبي.."

فكلمة "هويت" في البيت الثالث خادعة، يخيل إليك أن جاهين يحب القمر والزهور والجمال، ولكنه يفاجئك بعد هذا الارتفاع بهبوط من شاهق فإذا هو يحب كذلك ديدان الأرض وأغربتها.

والضوابط التي ذكرتها لك ليست مانعة - ليس في الفن قيود كالحديد - غلبة الأمر أنني أفضل القالب الذي وضعته على غيره، لذلك ينبغي لك أن لا تأخذ في رباعيات جاهين كل سؤال على أنه ينتهي بعلامة استفهام. إنه في أحيان كثيرة ينتهي في حقيقة الأمر بعلامة تعجب أشبه ما تكون بعلامة استفهام وهي ليست كذلك. فهذه الرباعيات لا ينطبق عليها تمحكي في وصفها بالضعف لأن البيت الأخير ينتهي بسؤال، وكذلك لم أكره في رباعيات أخرى كثيرة أن يكون البيت الثالث شطرة غير منفصلة عن شطرة البيت الرابع ويكون الختام مقسماً على البيتين معاً، وتكون الرباعية في حقيقة الأمر - إذا كان المعنى هو القياس لا الوزن - ثلاثية.

فمن أمثلة علامة التعجب المختفية في زي علامة استفهام :-

"وأنا في الضلام من غير شعاع يهتكه

أقف مكاني بخوف ولا أتركه
ولا يبجي النور وشوف الدروب
احتار زيادة : أيهم أسلكه ؟
عجبي."

فليس هذا باستفهام محتاج إلى جواب. لا معنى أن تقول له خذ جوابك "خذ هذا الدرب اليمين" أو "هذا الدرب شمال". أما في سؤال: "الأصل هو الموت ولا الحياة ؟" فإنه قطعاً يحتاج إلى جواب ولو بقولك: "لا أدري".

ومن أمثلة الرباعيات التي التحم فيها البيت الثالث والرابع.

"غدر الزمان يا قلبي مالهوش أمان
وحاييجي يوم تحتاج لحبة إيمان
قلبي ارتجف وسألني أأمن بأيه؟!
أأمن بأيه محتار بقالي زمان
عجبي."

ولكن هذه الرباعية وأمثالها تأسرك بجمالها الفاتن وبراعة لفظها ورقة معانيها وعمقها فيمتنع عليك أن تحس بأنها في حقيقة الأمر ثلاثية.

والرباعيات هي أفضل القوالب للشاعر الفيلسوف الذي يريد أن يعرض علينا مذهبه، لا في بحث فقهي أو في تتابع منطقي بل في ومضات متألقة. الديوان حينئذ يأخذ شكل العد الذي تتسلك فيه حبات من حجار كريمة مختلفة المياه ولكنها تتبع جميعاً من معين واحد.

إياك أن تظن أنك تستطيع أن تتبين غوره، فهذا الحصى اللامع الذي تظن أنه في متناول يدك إنما هو غارق في قاع سحيق، وما قربه إلا من خداع انكسار الضوء في الماء. الديوان هو حياة الشاعر ولكنه لا يعرض عليك أيامها بالتتابع بل يختار منها لحظاتها الفريدة. قد تقرأ أنت الديوان في ساعة ولكنك تحس أنك عشت مع الشاعر طوال حياته الشعورية المديدة، وإياك أيضاً أن تغفل أن الصورة التي هي أمامك هي من جنس هذه الصور التي يختلف نطقها باختلاف زوايا النظر، إليها هكذا علمنا عمر الخيام أمام الرباعيات الرباعية الواحدة تنبئ عن إقبال شديد على الحياة وإكبار لها. وتعلق بها، وتنبئ في الوقت ذاته عن الاستهانة بهذه الحياة واحتقارها لا تدري أهي لذة حسية أم هي لذة روحية ؟ أم متشائم مؤمن ؟ هو أم كافر ؟

إن كانت الحيرة مؤلمة فليس هنا لذة تفوق لذة هذه الحيرة التي يلقيك عمر الخيام في أحضانها أو بين مخالبيها، ذلك لأنها ليست ناجمة من أنك تجد نفسك في فراغ من حوله فراغ، بل لأنك في قلب دوامة تدور من حولك لا تعرف أين رأسها من ذيلها، هذا هو عين الخدر الذي يحبه الكبار الذين يركبون أرجوحة الصغار.

وإذا كنت تمتعت بهذا الخدر على يد عمر الخيام فإنني قد تمتعت به أشد المتعة على يد صلاح جاهين. هذه الرباعيات هي صلاح جاهين وصلاح جاهين هو هذه الرباعيات، لذلك لم يجد غضاضة من أن يتخذ من نفسه هو مرجعاً لكل رموزه، فقد وصف نفسه بأنه قرين مهرج السيرك لا تدري هل هو يضحك أم يبكي.. هل هو مطمئن أم خائف؟ هل هو مستسلم للحياة أم رافض لها؟.. هل هو يؤمن بالبشر أم يكفر بالفناء أم بالبقاء؟.. هل يعطف على ضعف الإنسان أم يضيق به؟.. قد لا تعرف كيف تجيب على هذه الأسئلة. ولكنك ستعرف ولا ريب شيئاً واحداً لا يمكن لك إنكاره: هو أنك لقيت عنده السعادة التي كنت تتمناها ولا تجدها: أن تقابل فناً أصيلاً لأحد لإنسانيته ورقته وصدق نظريته وعمقها، هو وحده الذي يجود عليك بفيض الكريم.

تتم رباعيات عمر الخيام عن أنها لم تتشكل إلا بعد أن استقر ربه على رأي فلسفي في الحياة، نضج عنده أولاً وتحدد، ثم تكامل واتسق. وحتى إذا كان قوام هذا الرأي القاطع هو الحيرة، فإنها حيرة مقننة ثابتة، إنه المحور المرسوم من قبل الذي تدور عليه الرباعيات جميعها، كل واحدة منها تقيس منه وتنعكس عليه، كل رباعية جزء فيه خصائص الكل، يكشف ويعرف به، فلا نشعر ونحن نمضي في قراءتها أننا نشهد تشبيهاً متعاقباً لبنيان لا نعرف كيف يكون إلا بعد تمامه. الرباعيات تتعلق بالرأي وحده دون صاحب الرأي، فليس فيها إشارة تنبئ عن شخصيته أو هيئته أو صفاته.

أما صلاح جاهين فقد كتب رباعياته منجمة، في كل عدد من صحيفة أسبوعية واحدة، وما أظنه دار في خلد له أو في خلدنا وهو يفعل ذلك أنه يعكس في هذه الرباعية خصائص الكل لرأي فلسفي في الحياة نضج واستقر في ذهنه، بل خيل إليه - كما خيل إلينا - أنه ترك حبله على الغارب. ما وقع في شبكته من صيد فهو قانصه، يستمد الرباعية مرة من عالم الفكر وحده، ومرة من مشاهدة المحسوس، ولا بأس عليه أن يشير أحياناً إلى شخصه فنعلم مثلاً أن صلاح جاهين رجل بدين.

"بين موت وموت بين النيران والنيران

ع الحبل ماشيين الشجاع والجبان

عجبي على دي حياه.. ويا للعجب

ازاي أنا - يا تخين - بقيت بهلوان

عجبي.."

ولعله ذهل - كما ذهلنا نحن - حين جمع هذه الرباعيات أخيراً في كتاب لا يزيد حجمه على حجم كف الصبي الصغير فإن هذه النفثات المنجمة المتناثرة نطقت - وبعضها ينضم لبعض - بأنها جميعاً وليد رأي فريد في الحياة، له اتساقه وله بدنه الواحد رغم تعدد وجوهه لا تجده إلا عند صلاح جاهين. ومع ذلك فنحن لا نشعر أن هذه الرباعيات تدور حول محور مرسوم من سابق، بل تشهد حياً منوعاً لفكرة لم تتمركز، وظل يدور حولها.

فهذه رباعية تكتفي بتسجيل الواقع المحسوس:

"صوتك با بنت الآيه كأنه بدن

يرقص يزبح الهم يمحي الشجن

يا حلوتي وبدنك كأنه كلام

كلام فلسفة سكرنا نسبو الزمن

عجبي."

ويخيل إلى أن صلاح كتبها بعد أن حضر مجلساً جمع بين الرقص والغناء.

ولكن الرباعيات شيدت فوق هذا الحجر البسيط تعبيراً فلسفياً عميقاً تحول فيه الرقص من حركات مادية إلى

رؤية عجيبة للحياة، نكاد نشهق لها. فنقرأ هذه الرباعية الجميلة التي بلغت من الفن ذروته :

"رقاصة خرسا ورقصة من غير نغم

دنيا.. يا مين يصالحها قبل الندم

ساعتين تهز بوجهها يعني لا

يترجرجوا نهديها يعني نعم

عجبي.."

وهذه رباعية محدودة الأفق، لعلها هي الأخرى مستمدة من لعب صلاح جاهين مع ابنه في يوم عيد:

ولدي.. إليك بدل البالون ميت بالون

انفخ وطرق فيه على كل لون

عساك نشوف بعينيك مصير الرجال

المنفوخين في السترة والبنطلون

عجبي."

يرفع صلاح فكرتها البسيطة التي تقابل مزاحها بابتسامة خفيفة إلى مقام لنظرة الشاملة : هيهات لنا أن

نبتسم ونحن نقرأها:

"إنسان.. أيا إنسان ما أجهلك

ما أتفهك في الكون ما أضالك

شمس وقمر وسدوم وملايين نجوم

وفاكرها يا موهوم مخلوقة لك ؟

عجبي."

لم يكرني هذا التفاوت الملحوظ في مستوى الرباعيات، بل بالعكس فرحت به وشكرت لصلاح أن أتاح لي

أن أشهد تشييد بنائه الفذ البديع من أساسه.

ذهلنا كثيرا حين رأينا الرباعيات قد كشفت، بعد اجتماعها، عن رأي واحد ينظمها. وذهلنا أكثر حين تبين لنا أنه ليس برأي سطحي أو ساذج لا يرتفع ماؤه رغم جماله وصفائه عن رسغ القد. إنه ليس بمثابة رد فعل كنقرة على وتر يستهلكها صداها الذي يموت سريعاً ضعفاً كأنه أزيز بعوض ثم صمت وفراغ، بل هو ماء كالبحر الخضم الذي يصعب عليك أن ترى ساحله، إنه يبتلعك فتغوص فيه، وهيهات أن تصل إلى أعماقه، متعدد الأمواج والألوان. إن نقرة الوتر لها دوي مهول لا ينقطع، تكاد تضع كفيك على أذنيك من شدة وقعه وإلحاحه. إنه كالغابة المتشابكة يتكشف لك عند كل خطوة منظر مختلف. أنت ماض في سبيلك ولكنك ربما تكون قد ضللت الطريق من حيث لا تدري وكأن الغابة تستدرجك عن عمد لتفنى بين أحضانها.

ولكني أعتقد أن امتحان هذا الرأي أشد دخولا في التحليل النفسي منه في الفلسفة، فالصلة بين الرأي وصاحب الرأي وثيقة جداً، فالرأي هنا هو في الحقيقة طبع ومزاج، وما قصد صلاح في ظني أنه يقدم لنا مذهباً فلسفياً متكاملاً يختص به، بل غاية مطلبه ولذته أن يكشف لنا عن معدن رحه، من وراء أستار شفافة ملونة كقوس قزح.

وقد يقف المستحيل أو الجاف النقي الإحساس عند بهرجة الألوان ولا يتعداها ولعمري إنه معدن فذ نفيس عقد غاية التعقيد كأنه اللغز. لذلك سيتحول كلامي عن الرباعيات إلى أسرار تكوينه الذاتي الذي هو الأصل في هذه الرباعيات.

وأزعم لك أنني اهتديت - فيما يخيل إليّ - إلى مفتاح اللغز. إلى الأرض التي أقيم البناء من فوقها فسترها إلى طرف الخيط الرئيسي الذي لا يستقيم إلا به تتابعه وتفك عقده، فهذا الخيط كرة متشابكة متداخلة ملتفة بحيث ينبهم عليك من أين تمسكه، وقد تقع على طرف فتجذبه فينتهي سريعاً بين يديك، تاركاً الكرة على حالها وسرها أنه منها ولكنه عنصر ثانوي لا يصل إلى قلبها.

ولكن حاشا لي أن أزعم أيضاً أنني اهتديت إلى الحق كله أو بعضه فما أبين إلا عن رأي شخصي، كما يحتمل التصديق يحتمل التكذيب رغم الحجج التي وثقت بها، لأنني أحببت صلاح وخالطت شعوره بشعوري إلى درجة التوحد والاندماج.

أكرر هنا كلمة الذهول لأصف بها إحساسي حينما وجدت أن اثنتين من الرباعيات - مدسوستين بين أخواتهما - تتفردان عن بقية الكتاب انفراد العنصر الدخيل الغريب الذي لا مبرر لوجوده، لشدة تعارضه مع الأصل تعجبت من أين ولماذا جاء وما معنى وجوده ؟

الرباعيات كلها نزهة جميلة يخالط دعابتها حزن رقيق وأسى غير ممزق، لأنه يضع يده دائماً في يد الأمل. أما هما فصرختان أو لولتان بالليل البهيم يرتجف لها القلب. فبدأ منهما تفهم صلاح، بل قد نرتد معه إلى طفولته. إنه أولاً خائف من الخوف" وهذا أقسى أنواع الخوف. اسمعه يقول :

"سهير ليالي وياما لفيت وطففت

وفي ليلة راجع في الضلام قمت شفت

الخوف. كأنه كلب سد الطريق

وكننت عاوز اقتله.. بس خفت.

عجبي!!

الطفل يرى الكلب بالليل فيحس بالخوف يرج قلبه، ولكن صلاح لم يصادف في طريقه كلباً، بل صادف لخوف ذاته، وقف أمامه وجهاً لوجه. الخوف هنا ليس شعوراً داخل القلب، بل هو مخلوق حي له شخصه وكيانه أنه يطلع على الناس فيروونه رأي العين، لكن تحديقه في صلاح شل قدرته على تبين ملامحه فلم يستطع أن يراه في وهمه إلا في صورة كلب يسد الطريق. وهذا التشبيه المسعف هو ولا ريب من ذكريات الطفولة. أغلب الظن أنه يرجع إلى حادثة وقعت فعلاً لصلاح في طفولته. أدرك صلاح وهو يعاني الحياة أن الكلب الذي أخافه في طفولته إنما هو رسول هزيل لمخلوق أشد هولاً وإرهاباً. ويعترف صلاح بصراحة أنه لم يقتحم الطريق، إنه خاف من الخوف، فلم يقل في نهاية الرباعيات مثلاً: "قمت زغت".

وقد يوهمك صلاح في هذه الرباعيات أنه يروي لك لقاءً عارضاً حدث له ذات ليلة، دلالة متصورة على شخصه، وربما أوحى صلاح لك بأن هذه الدلالة تشمل كل الناس، نطاقها هم البشر وليس غير، وأن لا خوف حيث لا إنسان. ولكن لا، إن الخوف عند صلاح يرتفع إلى مقام التفسير الشامل الكلي للكون كله، بنجومه وأفلاكه وسديمه وأجزم أن الرباعية التالية فريدة في الشعر العربي كله، لا أعرف لها مثيلاً في روعتها وشد وقعها في القلب، ولا في رسم صور للكون من خلال رؤية وليدة الزلازل والبراكين التي صَحَبَت مخاض النشأة الأولى :

"كان فيه زمان سحلية طول فرسخين

كفين عيونها: وخشمها بربخين

ماتت، لكن الرعب لم عمره مات

مع أنه فات بدل التاريخ تاريخين

عجبي!!

لا معنى لهذه الرباعية إلا بالتفسير الذي أزعمه، وصلاح يصدر فيها عن فكرة الرجل البدائي، الذي يسارع إلى تحويل الظواهر الكونية إلى قوى شريرة تسكن العالم السفلي، تتمثل له في شكل حيوانات أو حشرات مؤذية فالكون عند صلاح لا يزال يثير الرعب كما أثاره يوم النشأة الأولى. إنها انتهت ولكن الرعب باق رغم مر القرون. الخوف يتمثل لصلاح فيراه في صورة كلب، والرعب يراه في صورة سحلية، والكلب والسحلية رمزان لهيمنة قوة الشر الكامنة في الكون، يقف الإنسان أمامها عاجزاً مسلوب الإرادة رغم ما يعتلج به قلبه من حب للحياة والخير والجمال. ومن هنا تأتي الحيرة في فهم الكون وقرر الإنسان.

ولعل أول مشهد يراه الطفل عندنا يتمثل فيه التردد في فهم الفرق بين الوجود، بين الموت والحياة. هو ذيل السحلية حين ينهال عليه القبقاب فينقطع وينفصل عن الجسد. إنه يظل - وهو الموت - يتلوى ويتحرك، ويحدق فيه الطفل بعين مذهولة، وقد وقر في نفسه أيضاً أن السحلية - دون سائر الحيوان -

تتكلم، فهي ترج لسانها على سقف حلتها فيصدر منها صوت كأنه تتأدى به الناس، فيرد عليها أصحاب البيت قائلين: "صاحب البيت اسمه محمد" تشفعاً بالرسول لدفع شرها وأذاها. فمخاوف صلاح جاهين مخاوف الطفل أو الرجل البدائي كامنة في أعماق قلبه.

قلما نصادف كلمة الخوف، أو الرعب بعد ذلك في الكتاب ولكننا نحس بأثرها في رباعيات قليلة أخرى لا يستقيم تفسيرها إلا به. انظر إلى الرباعية التالية :

"ورا كل شباك ألف عين مفتوحين

وأنا وأنتي ماشيين يا غرامي الحزين

لو التصقنا نموت بضربة حجر

ولو افترقنا نموت متحسرين

عجبي!!"

هذه عيون يخاف منها صلاح، إنها عيون القدر المترصد بالشر، الذي يفرق بين الحبيب وحبيبته. والشر هنا معناه أن لا مناص للإنسان من الوحدة في هذه الحياة، وأن اللقاء مؤجل - إن كان هناك لقاء - إلى عالم الأرواح. إن صلاح يرتجف أيضاً من الوحدة. ولعل صلاح وقت أن كان طفلاً يلعب في الحارة لم ينقطع عنه الإحساس بأن من وراء شباك البيت عينا تراقبه، إنها رغم حنانها تأسره وتقيدته وتفسد عليه لعبه. وصلاح خائف أيضاً من شيء آخر، هو الفناء:

"أحب أعيش ولو أعيش في الغابات

أصحي كما ولدتني أمي وأبات

طاير.. حيوان.. حشرة.. بشره بس أعيش

محلا الحياة.. حتى في هيئة نبات

عجبي.."

الخوف من العدم والفناء هو الذي يجعل لمجرد الوجود روعته وبهائه. ولكن الرباعية توحى بأن صلاح لا يجعل كلمة "العيش" تعني "الوجود" وحده، بل تعني قبل كل شيء الفهم والقدرة على التمتع. إنه ليس بفهم عقلي يختص به الإنسان، بل فهم فطري غريزي يشاركه فيه الحيوان والنبات.

وأخيراً يكتب صلاح كل مخاوفه الأرضية والكونية في رباعية واحدة:

"لو كان فيه سلام في الأرض وطمأن وأمن

لو كان مفيش ولا فقر ولا خوف ولا جبن

لو يملك الإنسان مصير كل شيء

أنا كنت أجيب للدنيا ميت ألف ابن

عجبي!!"

هذه هي بلاوي الدنيا، يتَّوَجَّها بلاء كوني هو عجز الإنسان عن التحكم في المصير .
وانظر إلى كلمة الخوف التي اندست بين بلاوي الدنيا، فقد نطقت بدلالة لم تكن لتتبين إلا على ضوء
الرباعيتين من اللتين بدأت بهما حديث الخوف.

هذه هي بداية الخيط الذي سنفهم بفضل - وهو يقودنا - بقية الأسرار التي ينطوي عليها قلب صلاح
جاهين - وهي شعوره بالخوف. ولولا هذه البداية لما استطعت وفقا لمنطق متسق - على الأقل في تقديري
- أن أتتبع اتصال النمو الشعوري المنعكس من بقية الرباعيات رغم تبعثرها وقفزاتها وازدواج وجهها.
فبخطوة متوقعة يسيرة ينتقل صلاح من الشعور بالخوف إلى الشعور بشلل الإرادة، فلا تفسير لهذا الشلل إلا
بهذا الخوف المبدئي والبدائي. إنه شلل تام يكاد يشبه الموت، بل هو الموت بعينه :

"ودخل الربيع يضحك لقاني حزين

نده الربيع على اسمي لم قلت مين

حط الربيع أزهاره جنبي وراح

وايش تعمل الأزهار للميتين

عجبي.."

صلاح لم يتحرك بإرادة ليقطف بيده أزهار الربيع، بل الربيع بجلالة قدره هو الذي تقدم إليه، ونادى عليه
باسمه، ووضع الأزهار جنبه، ومع ذلك لم يستطع صلاح أن يفتح فمه ويقول: "من؟" أو يمد يده ليأخذ
الأزهار أو حتى يصوب إليها منخريه لشمها لأنه مشلول الإرادة، يحسب نفسه من الأموات.
وبخطوة أخرى يسيرة متوقعة ينتقل صلاح فيمر من الشعور بشلل الإرادة إلى الشعور بالملل، إذ لا فهم لهذا
الملل إلا إذا أرجعناه لشلل الإرادة:

"أيوب رماه البين بكل العلل

بعد سبع سنين رمضان وعنده شلل

الصبر طيب. صبر أيوب شفاه

بس الأكاده مات بفعل الملل

عجبي.."

سأتكلم فيما بعد عن أن قيمة صلاح في نظري راجعة إلى أنه يخاطب بغير إفصاح ضمير القارئ بكل ما
يختزنه من تراث دفين، ولكنني أراه في الرباعية السابقة يهزأ بهذا التراث ويستبدل به صورة جديدة. فالمستقر
في ذهني مثلاً - شأني في ذلك شأن بقية العامة - أن أيوب ابتلي بمرض جلدي، وكان يدور على بيوتنا
ونحن صغار باعة ينادون على عشب بري هو "رعرع أيوب" فكنا من كلمة "رعرع" وحدها نفهم أنه مصاب
بقروح. رعرع هي نضارة الجلد وسلامته وبعد برئه من قروحه. هي في ذهننا مرهم مرطب يوحى بنضارة
ورق الشجر في الربيع، ونتصور أيوب أنه كان جالسا تحت شجرة. وإذا أردت التأكيد من صدق هذا
الشعور - الذي اسمه بالتراث الدفين - أعود للروايات التي وردت في كتب التفسير فأجد بعضها ينص

على أنه كان مبتلى بالجدي، فصورة أيوب في ذهني هي صورة رجل منبوذ بالعراء، يتجنبه الناس حتى أقرب أقربائه، ولكنه ليس مشلول الجسم بل بالعكس إنه دائم الحركة يحك جلده بأظافره، وليس هو أيضاً بمشلول الإرادة، لأنه متعلق بالشفاء بإصرار يثير الإعجاب والتفزز في آن واحد، ولكن الكلام الذي قلته سابقاً عن شلل الإرادة هو الذي يفسر كيف أن صلاح حدد وعين مرض أيوب بأنه الشلل. وكلمة مشلول في هذه الرباعية توحى بأنه كان مشلول الجسم والإرادة معاً. وقد شفي أيوب عند صلاح ولكن.. الأكادة أنه مات بفعل الملل، الملل الذي هو وليد شلل الإرادة. فأيوب هنا ليس النبي، بل هو الإنسان الحديث كما يراه صلاح في نفسه، وصلاح هنا متصل شعورياً ببودلير. وانظر إلى خفة الدم في كلمة "فعل" في هذه الرباعية، إنها مقتبسة رأساً من قاموس العامية لا الفصحى.

أتجاوز عن الخطوة المتوقعة التالية لأقفز إلى نتيجة بعيدة لهذا الشعور بالشلل والملل، لأنني أريد أن أفرغ من رباعية فريدة لا أحب أن أتناولها إلا بإيجاز شديد.

وأرجو أن يكون ما وهبه الله لصلاح من قدرة صادقة هائلة على الدعابة قد قضى على سمها وبث الصلة اللعينة بينها وبين رباعيات الشلل والملل، إنها الرباعية التي أسميها - مكرها - رباعية النزعة الانتحارية، لأنني أفضل أن لا أرى فيها إلا دعابة خالصة لا تؤخذ مأخذ الجد.

"الدنيا أوده كبيرة للانتظار

فيها ابن آدم زيه زي الحمار

الهم واحد.. والملل مشترك

ومفیش حمار بيحاول الانتحار

عجبي.."

والانتظار هنا يعني كشوق الروح للخروج من سجنها واللاحق بملكوت الجمال المطلق، الجمال الإلهي. وسنرى فيما بعد أن هذا التشوف كان وراء حزن صلاح وثورته على ضعف الإنسان وفساد أصله، إنه تلهف على قدوم الحبيب، على الظفر بشيء جديد في عالم رتيب، عالم جنون أيضاً، ولكن الكلمة تخاطب كذلك ضمير القارئ في مستويات أدنى. الانتظار من أهم بلاوي العالم الحديث، انتظار في عيادات الأطباء، أمام مواقف الأتوبيس، في ذيل طابور أمام باب السينما، انتظار قدوم يوم القبض. وكلمة الانتظار هنا تعني أن كلمة الملل التي تبتعتها، إذ أصبحت الكلمتان عندنا مترادفتين وتأمل تكرار نغمة الملل في هذه الرباعية أيضاً.

وسنرى فيما بعد أننا لو استثنينا رباعية واحدة تحدثت عن العندليب - وأراهن أن صلاح لم ير العندليب قط بل لا يعرف ما هو شكله، ولكنه عنده طائر خرافي يمثل الرقة والجمال، أرقى من البلبل والكروان والهدهد، تلك الطيور التي تسبح في جو هذا الوادي ويعرفها صلاح - أقول لو استثنينا هذا العندليب الخرافي سنجد أن الحيوان الذي ورد ذكره في الرباعيات كلها هو الكلاب والخنازير والتماسيح والسحالي والدود. نضم إليها كلمة "الحمار" الواردة في الرباعية السابقة، إنها من جنسها. وهي توحى أيضاً بشيء من الضجر والحنق

يبعثان إلى أن تكون له رفسة مثل رفسة الجواد العريق إذا وقع في يد ظالم لا يرحمه ولا يحترم كرامته. هذا أيضاً سنراه فيما بعد حين نتكلم عن استخدام صلاح لكلمة "طنط" أو "تف".

إذا ولجنا من أبواب ثلاثة متلاحقة في دهليز مظلم هي أبواب الخوف والشلل والملل، أفضينا إلى ميدان فسيح مترامي الأطراف، ومع ذلك تظله كله - رغم صغرهما - ظل راية واحدة ترفرف فوق سارية عالية في وسطه.. راية الحزن، من حرير أسود جميل شفاف، نسجته العذارى، والجفون مسبلة على النهود، بأصابع تتكتم رعدة الصبان والحنان، تغار حاسة اللمس من حاسة النظر عند التطلع لهذه الراية من بعيد. إنه الحزن الذي يجتره أهل الشرق بتلذذ وتنعم، يختلط عندهم بالتأسي على النفس أولاً ثم على البشر كافة، لأن جذوره متصلة باعتقادهم في القدر الذي لا مهرب منه. لن يخدعنا صلاح وهو يصف نفسه تارة بالبهلوان، وتارة بالمهرج، فإن النغمة الغالبة على الرباعيات هي نغمة الحزن، لا لأن صاحبه قد مسته الحياة بضر في صحته أو رزقه أو عواطفه، بل لعل الحياة كانت به شديدة الترفق، كريمة لم تبخل عليه بشيء - وإنما هو حزن وليد التزمل في هذا الكون المجهول وفي أسرار الغامضة، وليد الحيرة في فهم وضع الإنسان فيه، وهل هو مجبول على الشر، لا حيلة له في جبلته. إنه حزن سام يرتفع عن الأرض، طاهر كالبحر لا يعكره دنس، ولو كان جثة الكفر الذي تسلل واقتحم ثم عام وسبح فغرق، وإن بقيت أواخر صرخاته تدوي في الأذن. إنه حزن نروح تتشوف للخلود لا حزن جسد يوقن أنه فانٍ، وصلاح يتأمل الكون، ويتأمل الإنسان ولا يسفر هذا التأمل إلا عن هذا الحزن الدفين.. إنه لا يحس به في نفسه وحده بل يراه في كل العيون.

"أعرف عيون هي الجمال والحسن

وأعرف عيون تأخذ القلوب بالحضن

وعيون مخيفة وقاسية، وعيون كثير

وبنحس فيهم كلهم بالحزن

عجبي.."

آه.. كم أطال صلاح تأمل العيون لا بنظره بل بقلبه. أحس منها بشكله الوجع الأبكم. ولكنه ليته أضاف

إلى عيون البشر عيون الحيوان أيضاً!

الرباط الذي يجمع الناس جميعاً عند صلاح هو رباط الحزن المكتوم، وقد بلغ من شيوع هذا الحزن أن

أصبح مألوفاً، وفقد بالتالي روعته وجلاله.

"يا حزين يا قمقم تحت بحر الضياع

حزين أنا زيك وأيه مستطاع

الحزن ما بقالهوش جلال يا جدع

الحزن زي البرد.. زي الصداع

عجبي.."

أصبح علاج صلاح لهذا الحزن هو السخرية به، إذ هان قدره لشدة ألفه به. ولكنه قبل ذلك يسخر من نفسه. لأنه رغم هوان هذا الحزن فهو عالق به كأنه دودة علق لا يستطيع أن ينفذها عنه. وسنرى فيما بعد أن خشبة النجاة التي يتعلق بها صلاح هي السخرية والدعابة.. سخرية طيبة غير لاذعة، ودعابة غير مروضة ولا مخلوعة العذر.

وهذه الرباعية تخاطب التراث في ضمير القارئ، فدلالة القمقم مستمدة من ألف ليلة وليلة، وتذكرنا بقصة العفريت الذي ظل دهوراً طويلة محبوساً في قمقم في قاع البحر إلى أن استنقذه صياد مسكين. ولولا هذا التراث لما أفصح النص اللغوي وحده عن الإيحاءات المقصودة منها. آه.. كم أنت إنسان يا صلاح، حتى إنك لتؤاخي حتى العفاريت وتتفق عليهم.

ولكن لماذا يحتضن صلاح جاهين كل هذا الحزن على صدره العريض ومن فوق لغز يبتسم بسخرية حلوة ودعابة محببة؟ إنه يمر في رباعياته مر الكرام بالهموم المعاشة والاجتماعية. إنها خارجة عن مجال قلقه واهتمامه، لا تستوقف إلا فلتة وقليل، كدح الإنسان في سبيل رزقه، خوفه من العجز عن تأمين هذا الرزق ولو بأدنى حد يصون له آدميته. حرصه على تملك حريته وإرادته بين إخوانه داخل حدود بلده وخارجها لا جور منه أو عليه، المظالم الاجتماعية، لماذا كان غني وكان فقراً تخمة ومجاعة، علم وجهل؟ ما هذا القانون المثالي للمعاملات الفردية والاجتماعية؟ كل هذا يتركه صلاح جانبا ويكتفي في رباعية واحدة بنفثة عميقة من صدره العريض تنبئ بأنه يحلم بوضع مثالي، كأنه بعيد المنال، أن يسود في الوطن والعالم كله أمن وسلام وطمأنينة وتعاطف.

"غمست سنك في السواد يا قلم

عشان ما تكتب شعر يقطر آلم

مالك، جرا لك أيه يا مجنون.. وليه

رسمت وردة وبيت وقلب وعلم

عجبي.."

وليس معنى هذا أن صلاح يستصغر ضغط الهموم المعاشة، بل ينبغي للإنسان في رأيه أن يتحرر منها ولكي يفرغ لهماومه الروحية ولكي يملك القدرة على تذوق الجمال، فهو في رباعية فريدة يسخر بظرف وبرفق من أستاذه وإمام طريقته عمر الخيام لأنه لا يشغل نفسه بهذه الهموم المعاشة:

"ياللي نصحت الناس بشرب النبيث

مع بنت حلوة وعود وضحك وحديث

مش كنت تتصحهم منين يكسبوا

ثمن دا كله؟ والا يمكن نسيث

عجبي.."

وكذلك لا يحبس صلاح نفسه طويلا في المجال الأخلاقي. إنه لا يقول لنا ما الذي يحبه. العفة والوفاء والصدق لا ترد على لسانه، بل يقول لنا ما لذي يكرهه. إنه يكره النفخة الكدابة. فالإنسان عنده مثل بالون الأطفال، يكفي أن تلمسه بسن إبرة حتى ينزل على فاشوش. صلاح يكره النفاق:

"حبيت.. لكن حب من غير حنان

وصحبت.. لكن صحبة مالهاش أمان

رحت لحكيم وأكثر لقيت بلوتي

أن اللي جوه القلب مش ع اللسان

عجبي.."

ويكره القسوة والاستغلال الظالم.

"قالوا الشقيق بيمص دم الشقيق

والناس ما هياش ناس بحق وحقيق

قلبي رميته وجبت غيره حجر

داب الحجر.. ورجعت قلب رقيق

عجبي"

ولكن كرهه الأشد الذي يرجه رجا منصب على تعذيب الإنسان لأخيه الإنسان، فينحط دون مرتبة الوحوش الضارية، إنها تفترس لتأكل ولكنها لا تعذب لتتلاذذ بالانتقام. وكأنما فقد صلاح بقية أمله في أن يبذل الإنسان شيئا من جهده ليعون أخيه، فكل مناشدته له أن لا ينقلب عليه هو الآخر وبلا تهون بجانب الولايات التي يعانيتها في هذا الوجود المطبق عليه كأنه قيد من حديد ليست البلوى أنه لا يلين، بل لا يبين..

"أنا كل يوم أسمع.. فلان يعذبوه

أسرح في بغداد والجزائر وأتوه

ماعجبش من اللي يطيق بجسمه العذاب

وأعجب من اللي يطيق يعذب أخوه

عجبي.."

يحصّر صلاح نفسه إذن في مجال الهموم الروحية. الإنسان منذ تلبس روحه ببدنه لا ينفك يعاني من أسئلة كثيرة تلح عليه وترهقه فلا يجد لها جواباً رغم توالي الحقب وتقدم العلم وغزو الفضاء، لماذا ومن أين وإلى أين؟ وهب عقلاً قد تتكشف له كل الأسرار إلا سره. فما نفعه؟ كيف نصل إلى معلوم بمجهول. هل الكون صدفة أم له خالق لا نعجز عن تصوره؟ كيف الوصول إليه؟ أناس فطاحل أجلاء انتهوا من جولتهم المضنية ينصحك أن لا وصول للإيمان وأنت مفتاح العين إلا بأن تبدأ الرحلة وأنت مؤمن مغمض العينين،

فكيف تكون النهاية هي البداية؟ وكيف يقود العمى إلى الإبصار؟ ما هو هذا الكون وما هي حكمة الوجود وما هي وظيفة الإنسان فيه؟ أمجبول هو على الخير والطهر أم على الشر والنجاسة؟ هل يستطيع بقدرته الصادقة على استبطان أحسن النيات وعلى الارتقاء في أحضان الإيمان والتشوق للخلاص والطهر والخير؟ أن يزحزح ولقد قيد أنملة خط قدره أو سير نظام واحد من أنظمة الكون أم يظل يقرع كل الأبواب، كالشحاذ يسأل المحسن أن يعطيه فرصة أخرى فالعمر قصير والمزالق جمة فلا تلقي له من نافذة ولو بكسرة جافة وتقول له النوافذ المغلقة: حل مشكلتك بنفسك وتحمل عبئك وحدك؟

فصلاح يريد أن يلحق بركب الفلاسفة والمتصوفين. إنه يقف ويدور حول هذه الأسئلة، ولكن دون أن ينفذ إلى لقبها ويستخلص لنفسه جواباً قاطعاً.. فلا مفر لك أن تسأل نفسك بعد أن تفرغ من الرباعيات: "وهل أتى صلاح بشيء جديد؟" وسنرى الإجابة على هذا السؤال فيما بعد.

وقد تنبئ بعض الرباعيات أنها لا تنفي عالم المثل الذي قال به أفلاطون، ولكن صلاح يرى أن هناك فصاماً تاماً واستحالة اتصال بين عالم المثل والوجود الحسي.

"يا قرص شمس ما لهش قبة سما

يا ورد من غير أرض شب ونما

يا أي معنى جميل سمعنا عليه

الخلق ليه عايشين حياة مؤلمة؟

عجبي.."

فأنت ترى أن الشمس موجودة ولكن ليست لها قبة، والورد موجود ولكن ليست له أرض. عالم المثل مليء بالجمال ولكن الوجود الحسي معدنه الألم. لا عجب أن صلاح حين شق طريقه وسط الهاليب ليصل إلى ينبوع الغرض الأسمى، ينبوع الحواديت، وجد الخنازير والكلاب تشرب منه:

"ينبوع وفي الحواديت أنا سمعت عنه

أنه عجيب.. وفي وسط لهاليب: لكنه

شقيت كما الفرسان طريقي.. لقيت

حتى الخنازير والكلاب شربوا منه

عجبي.."

وقد تفسر هذه الرباعية بأن الفيض الأسمى لا ييخل فيجود حتى على الكلاب والخنازير – كل الأحياء عنده سواء، ولكن نغمة الرباعية تبطن خيبة الأمل. فصلاح لم يصل للينبوع إلا بشق الطريق بجهد، وفي وسط الهيب فرآه مبدولاً لخنزير لم يبذل جهداً وكلب لم تسقط للوصول إليه شعره من فروته :

ويقف صلاح من الجمال موقف المتردد، يتشوق إلى درجة التهرق لبلوغ الجمال :

"تسلم يا غصن الخوخ يا عود الحطب

بيجي الربيع تطلع زهورك عجب

وأنا ليه يمضي ربيع ويبجي ربيع
ولسه برضك قلبي حته خشب
عجبي.."

متشوق للقاء الحبيب لأن الحبيب هو الجمال، أو قل هو وجه الله سبحانه : -

"ليه يا حبيبتي ما بينا دايمًا سفر
ده البعد ذنب كبير لا يغتفر
ليه يا حبيبتي ما بيننا دايمًا بحور
أعدي بحر الاقي غيره انحفر
عجبي.."

ثم إذا به فجأة يكفر بهذا الجمال لأن الحياة عبث في عبث.

"تسمة ربيع لكن بتكوي الوشوش
طيور جميلة بس من غير عشوش
قلوب بتخفق.. إنما وحدها
هي الحياة كده كلها في الفاشوش ؟
عجبي.."

وصلاح يؤمن أن الأصل في الخلق واحد ولكن المصير هو الذي يتغير. وأول ربايعته في الديوان تقول :

"مع أن كل الخلق من أصل طين
وكلهم بينزلوا مغمضين
بعد الدقائق والشهور والسنين
تلاقي ناس أشرار وناس طيبين
عجبي.."

ويحسن بنا أن نقف عند كلمة "طين" في البيت الأول، فهي قد تنبئ بأن صلاح يعتقد بأن الأصل معدن

خسيس يمثل الشر، في قلب كل إنسان مضغة منه :

"يا مشرط الجراح أمانة عليك
وأنت في حشايا تبص من حواليك
فيه نقطة سودة في قلبي بدأت تبان
شيلها كمان.. دا الفضل يرجع إليك
عجبي.."

واني أحب - كما قلت سابقاً - في رباعيات صلاح أنها تخاطب العميق من وجدان القارئ فهذه الرباعية نفهمها حق الفهم بوجودنا بفضل ما رسب فيه من تلاوة سيرة- الرسول عليه الصلاة والسلام- فقد أنبأتنا أحاديث غير قليلة أن ملكين شقاً قلب الرسول وهو صبي ليستخرجا منه مضغة سوداء. ومخاطبة الوجدان هو مجال هذا الشعر العباسي.

والدنيا كلها عند صلاح غارقة في الشرور ولذلك فلا أمل لها في الوصول إلى بر النجاة:

"توح راح لحاله والطوفان استمر

مركبنا تايه لسه مش لاقيله بر

آه من الطوفان.. وآهين من بر الأمان

ازاي تبان والدنيا غرقانة شر

عجبي.."

والإنسان في هذا الكون لا تزيد قيمته عن صفر.

"إنسان أيا إنسان ما أجهلك

ما أتفكهك في الكون وما أضالك

شمس وقمر وسدوم وملايين نجوم

وفاكرها يا موهوم مخلوقة لك

عجبي.."

وهو كذلك معدوم الحرية، عبد لشهواته ولو ذاق منها الأمرين :

"السم في الهواء. منين يضر

والموت ولو لعدونا.. منين يسر

حط القلم في الحبر.. واكتب كمان

والعبد للشهوات.. منين هو حر ؟

عجبي.."

ولعل الإنسان هو الذي جلب على نفسه كل هذه المصايب لأنه يريد أن يخضع الكون لمقاييسه كما نرى في الرباعية التي أولها "إنسان يا إنسان".

ويخرج صلاح من هذه الجولة المضنية وهو محنق. تجري على لسانه ألفاظ "طنط وتف" ويخرج أيضاً وهو متشائم. فلو تمثل الجمال المطلق على شيء فمآله أن يفترسه الشر ويتضح أنه وهم.

"كروان جريح مضروب بشعاع من قمر

سقط السموات فؤاده انكسر

جريت عليه قطة عشان تبلعه
أثاره خيال شعرا ومالوش أثر
عجبي.."

ولكن صلاح ينتشبت بخيط واهٍ من الأمل، فالحياة عنده إصرار على الحياة رغم ما يحيط بها من أعباء
وشرور، ومع ذلك ينتهي صلاح باعتقاده أنها في نهاية الأمر إنما تبطن شرا، فهو لا يتخلى عن تشاؤمه.
"دخل الشتا وقفل الببيان ع البيوت
وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت
وحاجات كثير بتموت في ليل الشتا
لكن حاجات أكثر بتفرض تموت
عجبي.."

ياللي أنت بيتك قش مفروش بريش
يقوى عليه الريح يصبح مفيش
عجبي عليك، حواليك مخالب كبار
ومالكش غير منقار وقادر تعيش
عجبي.."

ثم يسلم صلاح نفسه - لئلا تتحطم - إلى السخرية الوديعة بالإنسان، إنها غير قاسية، بل تتطوي على
حنان وحب شديدين. وأكثر سخرية صلاح موجهة للمتعالين المتعنطين، فلست أعرف في كل الذي قرأت
سخرية أذع من هذه السخرية التي أجدها في الرباعية التالية :

"يا طير يا عالي في السما طظ فيك
مافتكرشي ربنا مصطفىك
برضك بتاكل دود وللطين تعود
تمص فيه يا حلو.. ويمص فيك
عجبي.."

هل استقر صلاح واطمأن بعد تجاربه المزلزلة ؟ إن سألته اليوم ما الذي تملك لما أجابك إلا بقوله، لا أملك
إلا قلبي مليئا بالمحبة والتسامح إزاء ضعف الإنسان.

"فتحت شباكي لشمس الصباح
ما دخلش منه غير عول الرياح
وفتحت قلبي عشان أبوح بالآلم
ماخرجش منه محبة وسماح
عجبي.."

ولكن بعد هذا كل هل أتى صلاح بشيء جديد؟

هيهات أن تجد هذا الرجل في الغرب، أوكد لك أنني بحثت عنه - لأني أحبه - حين عشت في الغرب فلم أعر عليه، ذلك أن موطنه هو الشرق موطن الصحراء الممتدة، والسما الصافية، والنجوم اللامعة المنتشرة، وللكون لحن هو خليط همسها جميعاً، ففي الشرق لقيت هذا الرجل كثيراً حتى ألفتة وجلست إلى جانبه مراراً فلم يحس بوجودي بل كنت أنا هذا الرجل أحياناً وأنا في الشرق، فلما انتقلت للغرب اشتقت أن أكونه وحاولت فأخفقت، ولو قد نجحت وهزأ الناس من بواخي. إنه الرجل الذي يخلو لنفسه، تحسب أن ليس في مواجهة الطبيعة كلها أحد غيره، ظهره محنٍ وكأنما فوقه أنقال، ورأسه دان إلى القلب كأنما ينصت لوشوشته وقد تكون في يده أحياناً عصي يخط بها على الأرض لغة لم تكتشف أبجديتها بعد ولكنه يظل صامتاً، لا تدري أسارح الذهن في متاهات سحيقة؟ أم هو مستغرق في التفكير، اعترضته فكرة فسلمت فعانقت فحضنت - كما نفعل في الشرق - فاستوعبت فليس منها فكاك؟ وكلما طال الصمت اكتسى وجهه شيئاً فشيئاً بغلالة من الحزن، حزن رفيق غير مفترس، ليس له أنياب تنهش بل راحة يد كالطيف تربت بحنان.. يدل اطمئنان الرجل على أنه يجد لهذا الحزن الرقيق لذة تنتشي بها روحه ويتحلب لها فمه. ثم فجأة يمصمص بشفتيه ويهز رأسه وينطق لنفسه - فلا أحد معه - بكلمة واحدة. هي تارة (دنيا) وتارة (حكم) - جمع حكمة - أين كان؟ ما هي تقدمات هذه الكلمة الواحدة - لا أحد يدري. بل لعله هو نفسه لا يدري، ولو نصب لهذا الرجل تمثال يكون توعم لكان خليقاً أن يكون هو النبي الذي يطوف به في الشرق ركب أهل التصوف والحكم المرسلة.. فكلهم يصدرون أول الأمر عن هذا الاستعبار والشوق الرقيق فإذا خبطهم الوجد تفرقوا كالطير المنطلق من محبس ولكل منهم صيحته المحترقة المجلجلة في الفضاء، ولعل الكروان هو رمزهم حين يسبح ربه هاتفاً (الملك) وهو طير موطنه الشرق أيضاً.. وقد لحق صلاح جاهين في رباعياته بهذا الركب.. إنها أيضاً وليدة الخلوة والاستعبار والحزن الرقيق، وضع قلبه على يده ومدته إلينا - وهذا هو فيض الكريم - وقال: كلوا من كنوزي.. تذوقوها تجدوها لذيدة ولكننا نقول له: قد أكلنا وشبعنا من هذه الكنوز إلى حد التخمة.. فهو لم يأت بجديد، إنه يجتر تراثه المنقل إليه مع بقية أملاك الوقف التي أكل الدهر عليها وشرب حتى أصبح جلالها وسط العمارات الشاهقة المبنية بالأسمنت المسلح في عصر الذرة نوعاً من تحشم الشاكرين لربهم على الستر، وأصبح صوت تداعياها البطيء نوعاً من أنين الذكريات - بل إن صلاح اكتفى بتسجيل اهتزازاته المباشرة كأنما يخشى أن يبح صوته من قبل أن ينطق، وهذه الاهتزازات المباشرة يحكم عليها أهل الغرب عادة بأنها فطرية بدائية ساذجة، فهم يطلبون لصاحبها أن يصبر عليها حتى تستقر وتنظمها نظرة واحدة شاملة، تتصف بالعمق والاستيعاب، فلا تكون الطبيعة عندهم - كما هي عند صلاح - فرقاً متجمعة، بل وحدة موزعة. فالأثر المتبقي في النفس بعد قراءة الرباعيات أنها خدوش الأظافر في الصخرة الصماء التي هي القدر.

ومما يزيد في الشعور بفطرية هذه الرباعيات التي عامت فوق بحر التصوف دون أن تغرق فيه أن الاهتمامات الأولى لصاحبها - كما تفهم - هي البحث عن حلول مادية لمشكلات روحية. فليقل لنا صلاح على أي جنب يعض فكه.

غير أنني لا أقول هذا الكلام إلا لأنني أضعه في كفة ترجحها كفة أخرى تجعل من الرباعيات عملاً فنياً رائعاً، فلا حد لإعجابي بها وحبّي لها، لأن عصارتي هي الدم الذي يجري في عروقي منذ مولدي في المهد الذي نشأ فيه حافظ وجلال الدين ورابعة العدوية ومحيي الدين وابن الفارض.

وأول ما نجده في الكفة الراجحة هو تعبيرها الصادق الظريف الخفيف الدم عن مزاج ابن البلد في مصر - فصلاح ابن بلد مصفي، لم يفسده التعليم أو التثقيف بل زاده رقة على رقة - حتى جسمه - كما قلت مرة - يشبه بشدق نافخ في مزارم بلدي..

ويخيل إليك أن صلاح أخذ الدن المترب من عمر الخيام وصبه في قلة قناوي وضعها - وفي حلقتها فلة أو وردة - على رصيف قهوته التي يشرب فيها التعمير ساعة العصري ليكرع منها - ولا حاجة للكوب - كل عطشان عابر سبيل.. وهذا ثواب مبجل ومضمون عندنا، ولكنك إذا دقت النظر في تخاريم شباك هذه القلة لوجدتها آية في الصنعة الباهرة والزخرفة الجميلة، شباك أين منه دنتلا البندقية. وقد زهقنا أشد الزهق ممن يكتبون لنا بأساليب لا تمت إلى مزاجنا بأدنى سبب، كأنهم وهم يؤلفون يترجمون عن لغة أقوام آخرين، ذلك لأنهم يكتبون بلغة القواميس لا بلغة قلوبهم ولا يفرقون بين الأسلوب الفني وأسلوب موضوع الإنشاء الذي لابد أن يبدأ بجملة (خلق الله الإنسان). وإذا لم يصل أدبنا إلى التعبير عن مزاج أهله فإنه سيظل - والله الحمد - كالماء الصافي لا طعم ولا لون ولا رائحة.

ولا تحسبن أن سبب صدق تعبير صلاح عن مزاج ابن البلد راجع إلى أن الرباعيات مكتوبة بالعامية. فالمضمون فيها طغى على الشكل اللغوي حتى محاه ولا أخجل من الاعتراف بأنني لم أكن أحس وأنا أقرأ الرباعيات أنها مكتوبة بالعامية، ذلك أن صلاح قبل أن يكون ابن بلد مصفي هو الفنان المصفي الأصيل المتعدد المواهب، هو الفنان بشخصه وفي ذاته ولو لم يخط حرفاً واحداً، فكل ما يصدر عنه هو فيض - فيض الكريم.

ومن أمثال صلاح ينشأ في كل بلد (مجتمع الفنانين) الذين يعادون البورجوازية ويصادقون الأشراف والشحاذين على حد سواء، فهل هو موجود لدينا؟ لقد مر الزمن الذي كان الاتصاف فيه (بالبوهيمية) جواز مرور لقهوة الفن.. إنما بحثنا اليوم هو عن أصحاب الأمزجة الفنية الموهوبين، حتى ولو لم يخطوا حرفاً واحداً.. لي صاحب منهم تغنيني جلسة قصيرة معه بما لا تغنيني قراءة ألف كتاب، وربما كففت عن قراءة إنتاج أحد المؤلفين لأنني قابلته فرأيت وأحسست أنه جلف غليظ القفا، حتى لو كتب الروائع، يفتح الله.. فليست المسألة في الرباعيات هي بأي لغة كتبت، بل ماذا قال صاحبها. وأنا واثق أن صلاح لو كتب باللاوندي لفهم القارئ أن المؤلف ابن بلد في مصر.

والميزة الثانية أن صلاح سمح لنفسه أن يحدثنا عن نفسه، عن صفاته وأوهامه ومخاوفه ونوع النكتة التي يحبها، فهو لم يثقل علينا بنظريات مجردة، بل قدم لنا ترجمة ذاتية تنبض بالحياة.

وأستطرد هنا كذلك وأقول إن صلاح بعمله هذا لم يكتف بتقديم النتائج، بل جعلنا نصحبه في كل خطوة يخطوها فكأنه جعلنا نطل على عقله وهو يعمل.. وأغلب المؤلفين عندنا لا يسمحون لنا أن نطل على عقولهم فهم يأتون لنا بالنتيجة النهائية - على بلاطة - كأنما نزلت عليهم من السماء نزول المن والسلوى، فإذا أكلناها وجدناها مفقودة العصاره كأنها مصاص القصب، كأنهم يخشون أن يقال إذا كشفوا سيرهم المتردد المتخبط بأنه نوع من التعري، ومن أوجه هذه الظاهرة أن أدبنا يكاد يكون خلواً من وصف أزمات الضمير، فلا عجب أن كتب شبابنا بأسلوب لا تفرق بينه وبين أسلوب الشيوخ.. وأسلوب صلاح في الرباعيات هو أسلوب صلاح، بل هو صلاح نفسه.

كتب صلاح بالعامية - عامية أنيقة رشيقة ولكنه طعمها بألفاظ وتراكيب غير قليلة من الفصحى، فصالح ابن بلد معه (الأنس) بل استعار من الفصحى حركة التتوين لجعلها نونا ساكنة في قافية إحدى رباعياته.

عجبي عليك، عجبي عليك يا زمن

يا بو البدع يا مبكي عيني دما

ازاي أنا اختار لروحي طريق

وأنا اللي دخل في الحياة مرغما

عجبي..

فجاء هذا النطق وسط العامية تعبيراً صادقاً حلواً عن مزاج ابن البلد حين يتسلطن يقول صلاح في هذه الرباعية (أنا اللي) ويقول في رباعية أخرى (أنا الذي) لأن الذي يقوده ليست هي اللغة بل النغمة.

واللغة العامية مملوءة بمطبات كثيرة وجلدها سريع التحول من النعومة إلى الخشونة بحيث يحق لمن يتأملها أن يؤمن بأنها تتأبى أن تتقاد وتدخل في قيود بحور الشعر.. هي لغة في صميمها فوضوية.. خذ مثلاً النفي بحرف الشين الساكنة في ذيل فعل ماضٍ آخر حرف فيه ساكن أيضاً لأنه مجزوم بكلمة (ما) الواردة قبله. وأنت تعلم أننا نكره التقاء الساكنين. انظر مثلاً هذه الرباعية.

ياما صادفت صحاب وصاحبتهمش

وكاسات خمور وشراب وما اشريتهمش

اندم على الفرص اللي أنا سبتهم

والا على الفرص اللي ماسبتهمش

عجبي.."

انظر كيف تنقل كل قافية على النطق لو أخذت وحدها وبالأخص كلمة (ماسبتهمش) ويكاد الفم وهو ينطقها يتكور كقم القمع ويمتد السكون على حرف السين إلى نوع من وش الصغير ليحل محل الحركة التي يتطلبها التقاء الساكنين.

وقد عرف صلاح كيف يضع على جميع المطبات قناطر يعبر فوقها برشاقة رغم بدانته وحمله الثقيل من كراكيب العامية، حتى رباعية النفي بالشين حين تقرأها خبطة واحدة تشربها في شيء من السهولة دون أن تقف في الزور - ذلك الذي يقوده هو أذن شديد الحساسية بالنغم ولعل السبب أن قالب الرباعية الأصيل قد استولى عليه وخطبه وعلمه حسن الأدب، إذ ينبغي أن أعترف أن بعض قصائده المطولة التي نشرها في الأهرام بإمضاء (ص.ج) وهي مكتوبة بالعامية تبدو للساني وأذني وحتى لعيني - خالية خلواً تاماً من النغم، فلا أعرف هل هي شعر أم نثر؟ إن كانت شعراً فهي أردأ الشعر وأن كانت نثراً فهي أحط النثر، إنها حطام لا كيان. لقد كان قلب الرباعيات بمثابة قيثارة من صنع ستراديفاريوس فأمدت العازف البارص صلاح بما لا وجود به غيرها وبما لا توجد لغيره. كم أتمنى أن يلتقي الشعراء عندنا إلى قالب الرباعيات فلو بعثوه من مرقده لأنقذهم من حيرتهم وجمودهم وفك عنهم أسر القوافي المطولة كذيل ثوب الزفاف في أفرح الأثرياء. يحتاج إلى عشرين صبية لحمله.

والنغمة العامية لها أيضاً جذب شديد لأعلى بل إلى أسفل، إلى الابتذال وقد عرف صلاح كيف يتفادى هذا الابتذال بفضل رقة حسه ومزاجه وكرهه لكل ما هو غث وغلظ وثقيل - كل ما هو عفن وقليل الحياء ولكنك إذا سمحت لأعصابك المخدرة بسحر هذه الرباعيات أن تبرد قليلاً فقد يختلط عليك الأمر في بعض الأحيان فتبدو لك اللفظة البارعة كأنها نكتة مبتذلة:

بره القراز كان غيم وأمطار وبرق

ما يهمنيش - أنا قلت - ولا عندي فرق

غيرت رأيي بعد ساعة زمان

وكنت في الشارع وفي الجزمة خرق

عجبي.."

فلو غيرت كلمة عجبي بكلمة (انزل) لصلحت هذه الرباعية أن تدخل في ريبرتوار شكوكو العظيم.

لم يهدد أحد اللغة الفصحى كما هدها صلاح.

ضع في كيس واحد كل ما كتب بها من أزجال وقصائد وأغان فلن يصعب عليك أن تلقيه في أول كوم زباله يقابلك في سوق التوفيقية، حتى بيرم التونسي لم يشكل خطراً على الفصحى لأنه اقتصر على المحاكاة والوصف، أما صلاح فقد رفع العامية بعد أن طعمها بالفصحى وثقافة المثقفين - فهي في الحقيقة لغة ثالثة - إلى مقام اللغة التي تستطيع أن تعبر عن الفلسفة شعراً، وهذا خطر عظيم، ومع حبي لهذه الرباعيات أتمنى من صميم قلبي أن تكون عاقراً فنحن في غنى عن هذه البلبلة التي لا بد أن تصيب حياتنا الأدبية.

فالإجادة في هذه اللغة الثالثة لن تكون إلا قلقة من الفلتات، فلو استخدمها كل من هب ودب تحول غذاؤنا كله إلى بضاعة دكان التسالي.. لب وفول وحمص وفشار.

ونحن من علمنا بهذا الخطر لا نستطيع أن نتجاهل هذه الرباعيات إلا كنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال وهذا هو ردي على الأستاذ الجليل نزيل دمياط الذي أتتلمذ على يديه وأعترف من فضله فقد كتب إلي يقول (لم وفيم هذا العناء كله من أجل هذه الرباعيات المكتوبة بالعامية؟).

يحيى حقي
عطر الأحباب

إِيَهُم .

مع إن كل الخلق من أصل طين
وكلهم بينزلوا مغمضين
بعد الدقائق والشهور والسنين
تلاقي ناس أشرار وناس طيبين
عجبي !!

عجبي عليك.. عجبي عليك يا زمن
يا بو البدع يا مبكي عيني دما
إزاي أنا اختار لروحي طريق
وأنا اللي داخل في الحياة مرغما
عجبي !!

مرغم عليك يا صبح مغصوب يا ليل
لادخلتها برجلئيا ولا كانلي ميل
شايّلي شيل دخلت انا في الحياة
وبكره ح اخرج منها شايّلي شيل
عجبي !!

سنوات وفايته عليا فوج بعد فوج
واحده خدّتي ابن والتانية زوج
والتالثة أب خدّتي والرابعة إيه

إيه يعمل اللي بيحذفه موج لموج ؟

عجبي !!

وأنا في الظلام.. من غير شعاع يهتكه

أقف مكاني بخوف ولا أتركه

ولما بيجي النور واشوف الدروب

أحتار زيادة.. أيهم أسألكه؟

عجبي !!

نظرت في الملكوت كثير وانشغلت

وبكل كلمة (ليه؟) و (عشانيه) سألت

أسأل سؤال.. الرد يرجع سؤال

وأخرج وحيرتي أشد مما دخلت

عجبي !!

خرج ابن آدم م العدم قلت : ياه

رج ابن آدم للعدم قلت : ياه

تراب بيحيا.. وحي بيصير تراب

الأصل هو الموت والا الحياة ؟

عجبي !!

ضريح رخام فيه السعيد اندفن

وحفره فيها شريد من غير كفن

مرّيت عليهم.. قلت يا للعجب
لاتنين ريحتهم فيها نفس العفن

عجبي !!

ياما صادفت صاحب وما صحتهمش
وكاسات خمور وشراب وما شريتهمش
أندم على الفرص اللي أنا سبتهم
والا على الفرص اللي ماسبتهمش ؟

عجبي !!

والكون ده كيف موجود من غير حدود ؟
وفيه عقارب ليه وتعابين ودود ؟
عالم مجرب فات وقال سلامات
ده ياما فيه سوالات من غير ردود

عجبي !!

غدر الزمان يا قلبي مالهوش أمان
وحايجي يوم تحتاج لحبة إيمان
قلبي ارتجف وسألني.. أأمن بإيه ؟
أأمن بإيه محتار بقالي زمان ؟

عجبي !!

يا باب أيا مقفول.. إمتى الدخول ؟

صبرت ياما واللي يصبر ينول
دقيقت سنين.. والرد يرجع لي : مين ؟
لو كنت عارف مين أنا.. كنت أقول
عجبي !!

أنا شاب لكن عمري ولا ألف عام
وحيد ولكن بين ضلوعي زحام
خايف ولكن خوفا مني أنا
أخرس ولكن قلبي مليان كلام
عجبي !!

أحب أعيش ولو أعيش في الغابات
أصحى كما ولدتني أمي وابات
طائر.. حُوان.. حشرة.. بشر.. بس اعيش
محلا الحياة.. حتى في هيئة نبات
عجبي !!

سَهَّير ليالي وياما لَقَّيت وطفُت
ف ليله راجع على الظلام قمت شفت
الخوف.. كأنه كلب سدَّ الطريق
وكنت عاوز أقتله.. بس خُفت
عجبي !!

كان فيه زمان سحلية طول فرسخين
كهفين عيونها وخشمها برخين
ماتت.. لكن الرعب لم عمره مات
مع إنه فات بدل التاريخ تاريخين
عجبي !!

عجبتني كلمة من كلام الورق
النور شرق من بين حروفها وبرق
حببت أشياء قلبي.. قالت حرام
ده أنا كل قلب دخلت فيه اتحرق
عجبي !!

رقبة قزازة وقلبي فيها انحشر
شربت كأس واثنين وخامس عشر
صاحبت ناس من الخمرة ترجع وحوش
وصاحبت ناس م الخمرة ترجع بشر
عجبي !!

كل اللي في الخمارة صابهم جنون
صباحوا الرجال يتبادلوا كأس المنون
وبدم ونبيت انكتب ع الجدار
"يا ميت ندامة ع اللي قلبه حنون"

عجبي !!

قالوا الشقيق بِـيُمُصِّ دم الشقيق
والناس ما هَيَّاش ناس بحق وحقيق
قلبي رميته وجبت غيره حجر
داب الحجر... ورجعت قلبي رقيق

عجبي !!

يوم قلت آه.. سمعوني قالوا فسَدُ
ده كان جدد قلبه حديد واتحسد
ريدت على اللامين أنا وقلت.. آه
لو تعرفوا معنى زئير الأسد

عجبي !!

بين موت وموت.. بين النيران والنيران
ع الحبل ماشيين الشجاع والجبان
عجبي علادي حياة.. ويا للعجب
إزاي أنا - ياتخين - بقيت بهلوان

عجبي !!

أنا قلبي كان شخشيخة أصبح جرس
جلجلت به صُحُيُوا الخدم والحرس
أنا المهرج.. قمتو ليّه خفتو ليّه ؟

لاف إيدي سيف ولا تحت مني فرس

عجبي !!

دخل الريح يضحك لقاني حزين

نده الريح على اسمي لم قلت مين

حط الريح أزهاره جنبني وراح

وايش تعمل الأزهار للميتين

عجبي !!

مهوش بخرىوش الألم والضياح

قلبي ومنزوع م الضلوع انتزاع

يا مرايتي يا اللي بترسمي ضحكتي

يا هَلْ تَرى ده وش والا قناع

عجبي !!

حبّيت.. لكن حب من غير حنان

وصاحبت لكن صُحبة مالهاش أمان

رحلت لحكيم واكثر لقيت بلوتي

إن اللي جوّه القلب مش ع اللسان

عجبي !!

ليه يا حبيبتي ما بيننا دايماً سفر

ده البعد ذنب كبير لا يُغفر

ليه يا حبيبتي ما بيننا دايمًا بحور
أعدي بحر الاقي غيره اتحفر
عجبي !!

ورا كل شباك ألف عين مفتوحة
وانا وانتني ماشيين يا غرامي الحزين
لو التصقنا نموت بضربة حجر
ولو افترقنا نموت متحسرين
عجبي !!

نوح راح لحاله والطوفان استمر
مركبنا تايهة لسة مش لاقية بر
آه من الطوفان وأهين يا بر الأمان
إزاي تبان والدنيا غرقانة شر
عجبي !!

على رجلي دم.. نظرت له ما احتملت
على إيدي دم.. سألت : ليه ؟ لم وصلت
على كتفي دم وحتي على راسي دم
أنا كُلي دم.. قلت ؟.. والا اتقلت ؟
عجبي !!

أنا كل يوم اسمع.. فلان عدبوه

أسرح في بغداد والجزائر واتوه
ما اعجبش م اللي يطيق بجسمه العذاب
واعجب من اللي يطيق يعذب أخوه
عجبي !!

ينبوع وفي الحوايت أنا سمعت عنه
إنه عجيب.. وف وسط لهاليب لكؤه
شقيت كما الفرسان طريقي.. لقيت
حتى الخنازير والكلاب شربوا مئه
عجبي !!

يا قرص شمس مالهش قبة سما
يا ورد من غير أرض شبّ ونما
يا أي معنى جميل سمعنا عليه
الخلق ليه عايشين حياة مؤلمة ؟
عجبي !!

شاف الطبيب جرحي وصّف له الأمل
وعطاني منه مقام يا دوب ما اندمل
مجروح جديد يا طبيب وجرحي لهيب
ودواك فرغ مني.. وإيه العمل ؟
عجبي !!

أعرف عيون هي الجمال والحسن
وأعرف عيون تأخذ القلوب بالحزن
وعيون مُخيفة وقاسية وعيون كثير
وبأحس فيهم كلهم بالحزن
عجبي !!

إيش تطالبي يا نفسي فوق كل ده ؟
حظك بيضحك وانتني متكددة
ردت قالت لي النفس : قول للبشر
ما يبصوليش بعيون حزينه كده
عجبي !!

اقلع غمأك يا تور وارفض تليف
اكسر تروس الساقية واشتم وتيف
قال : بس خطوة كمان .. وخطوة كمان..
يا اوصل نهاية السكة يا البير يجف
عجبي !!

يا حزين يا قمقم تحت بحر الضياع
حزين أنا زيك وإيه مستطاع ؟!
الحزن ما بقالهوش جلال يا جدع
الحزن زي البرد .. زي الصداع

عجبي !!

في يوم صحيت شاعر براحة وصفا
الهمم زال والحرزن راح واختفى
خَدني العجب وسألت روعي سؤال
أنا مُت ؟ .. والا وصلت للفلسفة ؟

عجبي !!

الفيلسوف قاعد يفكر سيبوه
لا تعملوه سلطان ولا تصالبيه
ما تعرفوش إن الفلاسفة يا هوه
اللي يقولوه بيرجعوا يكذبوه ؟

عجبي !!

على بعد مليون ميل من أرضنا
من الفراغ الكوني بصيت أنا
لا شفت فرق ما بين جبال أو بحور
ولا شفت فرق ما بين عذاب أو هنا

عجبي !!

إنسان أيّا إنسان ما أجهلك ؟
ما أنفحك في الكون وما أضالك ؟
شمس وقمر وسدوم وملايين نجوم

وفاكرها يا موهوم مخلوقه لك ؟

عجبي !!

نظرت فوقى للنجوم وانا ساير
رجليا عتريت في الحُفر والحجاير
بقيت أقول وانا ع التراب : يا سلام
مش بس عبره أخذت لكن عباير

عجبي !!

-يا نجم.. نورك ليه كده بيرتجف ؟
هو انت قنديل زيت ؟.. أو تختلف ؟
-أنا نجم عالي.. بس عالي قوي
وكل ما انظر تحت أخاف انحدف

عجبي !!

السم لو كان في الدوا.. منين يضر ؟
والموت.. ولو لعدونا.. منين يسر ؟
حُط القلم في الحبر واكتب كمان
..والعبد للشهوات.. منين هو حر ؟

عجبي !!

وقفت بين شطين على قنطرة
الكذب فين والصدق فين يا ترى

محتار ح اموت.. الحوت خرج لي وقال
هو الكلام يتقاس بالمسطره ؟

عجبي !!

سرداب في مستشفى الولاده طويل
صرخات عذاب ورا كل باب وعويل
.. وفي الطريق متزوقين البنات
متزوقين للحب والمواويل

عجبي !!

الدنيا أوده كبيره للانتظار
فيها ابن آدم زيه زي الحمار
الهم واحد.. والمال مشترك
ومفيش حمار بيحاول الانتحار

عجبي !!

أيوب رماه البين بكل العلل
سبع سنين مرضان وعنده شلل
الصبر طيب.. صبر أيوب شفاه
بس الأكاده مات بفعل المال

عجبي !!

نسمه ربيع لكن بتكوي الوشوش

طيور جميلة بس من غير عشوش
قلوب بتخفق..إنما وحدها
هي الحياه كده..كلها في الفاشوش

عجبي !!

يا طير يا عالي في السماء طُظ فيك
ما تفتكرشي رينا مُصْطَفِيك
برضك بتاكل دود وللطين تعود
تمص فيه يا حلو..ويمص فيك

عجبي !!

كروان جريح مضروب شعاع م القمر
سقط من السموات فؤاده انكسر
جريت عليه قطه عشان تباعه
أتاريه خيال شعراء ومالهوش أثر

عجبي !!

ياللي نصحت الناس بشرب النبيات
مع بنت حلو..وعود، وضحك، وحديت
مش كنت تنصحتهم منين يكسبوا
تَمَن ده كله ؟..والا يمكن نسييت

عجبي !!

ما حد في الدنيا دي واخذ جزاته
ولا حد بيفكر في غير لذاذاته
ما تعرفش يا حبيبتى.. أنا وانتى مين ؟
انتى عروس النيل.. وأنا النيل بذاته
عجبي !!

رقاصه خرسا ورقصه من غير نغم
دنيا.. يا مين يصلحها قبل الندم
ساعتن تهز بوجهها يعني لا
يترجرجوا نهديها يعني نعم
عجبي !!

اخطفني ياللي تحبني ع الحصان
الدنيا قالت يوم في ماض الزمان
اخطفني ياللي تحبني ع الفرس
الدنيا قالت.. قام خطفها الشيطان
عجبي !!

من بين شقوق الشيش وشقشقت لك
مع شهقة العصافير وزقزقت لك
نهار جديد أنا.. قوم نشوف نعمليه
أنا قلت يا ح تقناي.. يا ح اقتلك

عجبي !!

قلبي عليل يا ناس وفي الكاس دواه
مدّيت له إيدي شريت م اللي حواه
جنبني الشمال خف.. اليمين اتوجع
وايه يداوي الكبّد م اللي كواه

عجبي !!

.. دي مذكرات وكتبتهها من سنين
في نوته زرقا لون بحور الحنين
عترت فيها.. رميتها في المهملات
وقلت أما صحيح كلام مخبولين

عجبي !!

دخل الشتا وقفل البيبان ع البيوت
وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت
وحاجات كتير بتموت في ليل الشتا
لكن حاجات أكثر بترفض تموت

عجبي !!

- الدنيا من غير الربيع ميّته
ورقة شجر ضعفانه ومفتّته
- لأ يا جدع غلطان تأمل وشوف

زهر الشتا طالع في عز الشتا

عجبي !!

يا للى انت بيتك قش مفروش بریش

تقوى عليه الريح.. يصبح مفیش

عجبي عليك حواليك مخالب كبار

ومالكش غير منقار وقادر تعيش

عجبي !!

سمعت نقطة ميه جوه المحيط

بتقول لنقطه ما تنزلش في الغويط

أخاف عليك م الغرق.. قلت أنا

ده اللي يخاف م الودع يبقى عبيط

عجبي !!

جالك أوان ووقفات موقف وجود

يا تجود بدّه يا قلبي يا بدّه تجود

ما حد يقدر يبقى على كل شيء

مع إن - عجبي - كل شيء موجود

عجبي !!

جالك أوان وعرفت مشي الجنائز

كيف شُفتها يا عبد رب اللذايز

قال : شفت شيل بالحيل فقير أو أمير
كما شالوا في الخمامير فواضي القرايز

عجبي !!

أنا كنت شيء وصبحت شيء ثم شيء
شوف رينا.. قادر على كل شيء
هَزَّ الشجر شواشييه ووشوشني قال :
لا بد ما يموت شيء عشان يحيا شيء

عجبي !!

يا مشرط الجراح أمانة عليك
وانت ف حشايا تبص من حواليك
فيه نقطه سوده في قلبي بدأت تبان
شيلها كمان.. والفضل يرجع إليك

عجبي !!

كيف شفت قلبي والنبى يا طبيب
همد ومات والا سامع له دبيب
قاللي ؟ لقيته مختنق بالدموع
وما لوش دوا غير لمسه من إيد حبيب

عجبي !!

تسلم يا غصن الخوخ يا عود الحطب

بيجي الربيـع.. تطلع زهورك عجب
وانا ليه بيمضي ربيع وبيجي ربيع
ولسه برضك قلبي حنة خشب
عجي !!

بحر الحياه مليان بغرقى الحياه
صَرَخْتُ خَش الموج في حلقى ملاه
قارب نجاه !.. صَرَخْتُ قالوا مفيش
غير بس هو الحُب قارب نجاه
عجي !!

فارس وحيد جوّه الدروع والحديد
رفرف عليه عصفور وقال له نشيد
منين منين.. ولفين لفين يا جدع ؟
قال من بعيد ولسه رايح بعيد
عجي !!

كان في قمر كأنه فرخ الحمام
على صغره دق شعاع شق الغمام
أنا كنت حاضر قلت له ينصرك
إشحال لما ح تبقى بدر التمام
عجي !!

النهـد زي الفهـد نـط انـدلع
قلبي انهـش بين الضـلوع وانـخلع
ياللي نهيت البنـت عن فعلها
قـول للطـيعة كـمان تبطل دلع
عجبي !!

صوتك يا بنت الإيه كأنه بدن
يرقص يزيج الهم يحـي الشـجن
يا حلوتي وبدنك كأنه كلام
كلام فلاسفه سـكروا نـسيوا الـزمن
عجبي !!

كـراج سـعاده وقلبي منه انـجلد
رـمـح كأنه حصان ولـفّ البـلد
ورجع لي نـصّ اللـيل وسألني.. ليه
خـجلان تقـول إنـك سـعيد يا ولـد
عجبي !!

مزّيكه هاديـه الكـون فـيها انـغمـر
وصـيف وليـل وعُـقـد فل وسـمـر
يا هلّـتري النـاس كلهم مبـسـوطـين ؟
ويا هلّـتري شـايفـين جـمال القـمر ؟

عجبي !!

إنشد يا قلبي غنوتك للجمال
وارقص في صدري من اليمين للشمال
ما هوش بعيد تفضل لبكره سعيد
ده كل يوم فيه ألف ألف احتمال

عجبي !!

آه لو أنا ومحبوبي جُزنا الفضا
في سفينة وحدينا.. وأشيا رضا
ساعة صفا تعجبنا نرجع لها
والهم قبل ما بيجي.. يبقى مضى

عجبي !!

أنا إليه الوجد رب الهيام
أضرب بسهم الوهم وهُم الغرام
وهُم الغرام من كُثر ما هو لذيذ
رَشَقْتُ أناف صدري جميع السهام

عجبي !!

حدوته عن جعران وعن خُنفسه
انقلبوا حَبُّوا بعض ساعة مَسَا
ولا قال لهم حد اختشوا عيب حرام

ولا حد قال دي علاقة متدنسه

عجبي !!

ياللي عرفت الحب يوم وانطوى

حسك تقول مشتاق لنبيع الهوى

حسك تقول مشتاق لنبيع الغرام

ده الحب.. مين داق منه قطره.. ارتوى

عجبي !!

زحام وأبواق سيارات مزعجة

اللي يطول له رصيف.. يبقى نجا

لو كنت جنبى يا حبيبي أنا

مش كنت اشوف إن الحياة مبهجة ؟

عجبي !!

إيديا في جيوبى وقلبي طرب

ساح في غربة بس مش مغترب

وحدي لكين ونسان وماشي كده

وبابتعد.. ما اعرفش.. أو باقترب

عجبي !!

يا ميت ندامه ع القلوب الخلا

لا محبة فيها ولا كراهه ولا

حتى يا قلبي الحزن ما عادش فيك
معلّش... لك يوم برضه راح تتملا

عجبي !!

مرحب ربيع مرحب ربيع مرحبه
يا طفل يا للي ف دمي ناغا وحبّا
علشان عيونك يا صغّان هويت
حتى ديدان الأرض والأغربه

عجبي !!

فتحت شباكي لشمس الصباح
ما دخلش منه غير عويل الرياح
وفتحت قلبي علشان أبوح بالألم
ما خرجش منه. غير محبه وسماح

عجبي !!

غمست سنبك في السواد يا قلم
علشان ما تكتب شعر يقطر ألم
مالك جراك إيه يا مجنون... وليه
رسمت وردة وبيت وقلب وعالم

عجبي !!

أنا الذي عمري اشتياق في اشتياق

وقطُر داخل في محطة فراق
قصدت نبع السم وشربت سم
من كُثر شوقي وعشمي في الترياق
عجبي !!

أنا الذي عشت الزمن مضية
بروح حزينة معقنة مضعضعه
زرعت شجرة سنط لجل انجرح
لقيتها شاعر البنات ومفرعة
عجبي !!

لو فيه سلام في الأرض وطمأن وأمن
لو كان مفيش ولا فقر ولا خوف وجبن
لو يملك الإنسان مصير كل شيء
أنا كنت أجيب للدنيا ميت ألف ابن
عجبي !!

العُشب طاطا للنسايم ونح
أخضر طري مالهش في الحُسن أخ
عصفور عبيط أنا.. غاوي بهجة وغنا
ح انزل هنا.. وانشا لله يهبرني فخ
عجبي !!

أوصيك يا ابني بالقمر والزهور
أوصيك بليلى القاهرة والمسحور
إن جيت في بالك.. اشترى عُقد فُل
لأي سمرا... وقبري إوعك تزور
عجبي !!

غمض عينيـك وارقص بخفة ولع
الـدنـيا هـيَّ الشـابـة وانـت الجـدع
تشوف رشاقة خطوتك تعبـدك
لكن انت لو بصيت لرجليك.. تقـع
عجبي !!

حاسب من الأحزان وحاسب لها
حاسب على رقابيك من قبلها
راح تنتهي ولا بد راح تنتهي
مش انتهت أحزان من قبلها ؟
عجبي !!

يأسك وصبرك بين إيديك وانت حر
تيأس ما تيأس الحياه راح تمر
أنا دقت مندا ومندا عجبي لقيت
الصبر مُرّ ومرضك اليأس مُرّ

عجبي !!

ولدي نصحتك لما صوتي اتَّـبَحَ
ما تخافش من جِئِّي ولا من شَبَحَ
وإن هبَّ فيك عفريت قتيل أسأله
ما دافعش ليه عن نفسه يوم ما اندبح ؟

عجبي !!

ولدي إليك بدل البالون ميت بالون
انفخ وطرقع فيه على كل لون
عساك تشوف بعينيك مصير الرجال
المنفوخين في السطرة والبنطلون

عجبي !!

خُوض معركتها زي جدك ما خاض
صالب وقالب شفتك بامتعضاض
هي كده.. ما تتولش منها الأمل
غير بعد صدَّ وردَّ ووجاع مخاض

عجبي !!

كام اشتغلت يا نيل في نحت الصخور
مليون بئونه وألف مليون هاتور
يا نيل أنا ابن حلال ومن خلفتك

وليه صعيه عليّ بس الأمور

عجبي !!

منين أجيبها كلمة متألمة

لعبيّة فايره حايره ومصممة

منين أجيب كلمة تكون بنت أرض

تشفي اللي ما شفاهوش كلام السما ؟

عجبي !!

أنا قلت كلمة وكان لها معنيين

كما بطن واحد وتوعمين زين وشين

لو دنيا شر.. التوعم الخير يموت

لو دنيا خير.. الشرح يعيش منين ؟

عجبي !!

بره القزاز كان غيم وأمطار وبرق

ما يهمني ش - أنا قلت - ولا عندي فرق

غيّرت رأيي بعد ساعة زمان

وكنت في الشارع... وفي الجزمة خرق

عجبي !!

عيني رأيت مولود على كتف أمه

يصرخ تهنّن فيه يصرخ تضمّه

يصرخ تقول : يا بني ما تنطق كلام
ده اللي ما يتكلمش يا كُتر هُمُّه

عجبي !!

يا عنديب ماتخافش من غنوتك
قول شكوتك واحكي على بلوتك
الغنوه مش ح تموتك إنما
كتم الغنا هو اللي ح يموتك

عجبي !!

يا للي بتبحث عن إله تعبده
بحث الغريق عن أي شيء ينجده
الله جميل وعليم ورحمن رحيم
احمل صفاته... وانت راح توجده

عجبي !!

حقرا وفوق كوكب حقيـر محتقر
في الكون تكون دنياكو إيه يا بقـر
رملايه من صحرا ؟.. لكين إيش تقول
والكون بحاله جوّه عقل البشر

عجبي !!

لا تجبر الإنسان ولا تخيـره

يكفيه ما فيه من عقل بيحيّـه
اللي النهـاره بيطلبه ويشـتهيه
هو اللي بـكره ح يشـتهيه يغيّـره
عجبي !!

يا للي ف حماء الشمس تلقى الملاذ
وألف بـكره وبـكره.. وفي ضلوعه لاذ
مين انت ؟ ماردا ؟ رب ؟ قال لأ ده بس
انا اللي باروي القمح واسقي الفولاذ
عجبي !!

غسل المسيح قدمك يا حافي القدم
طوبى لمن كانوا عشانك خـدم
صنعت لك نعليك أنا يا أخي
مستتي إيه.. ما تقوم تدوس العـدم
عجبي !!

البط شال عدّى الجبال والبحـور
ياما نفسي اهـجّ... أحـج ويا الطيور
أوصيك يا ربي لما أموت.. والنبي
ما تودّنيش الجنة... للجنة سور
عجبي !!

طال انتظاري للربيع يرجع
والجوى يدفأ والزهور تطلع
عاد الربيع عارم عرمم شباب
إيه اللي خلاني ابتديت افزع ؟
عجبي !!

ولو انضيت وفنيت وعمري انفرط
مش عاوز الجأ للحلول الوسط
وكممان شطط وحنون مانيش عاوز
يامين يقول لي الصح فين والغلط ؟
عجبي !!

عاد الربيع كأنه طعم الحب
والحب نار جوه العروق بتصب
اتمتع ازاي بيه وأنا متقطع
من كُتر خوفي لا في الخطيئة يطب ؟
عجبي !!

ازاي شبابنا يقوم وياخد دوره
من غير صراخ يئذيه ويجرح زوره
يا هل تَري أحسن له يقعد ساكت ؟
أو ينترك ولو خرج عن طوره؟

عجبي !!

عيني رأيت عصفور وويلاه ابنه
بيحذفه في الريح وياخذه ف حضنه
نوبتين وتالت نوبه - عجبي عليهم -
كانوا سوا بيرفروا وياغناوا

عجبي !!

أحسن ما فيها العشق والمعشقة
وشويتين الضحك والتريقة
شفت الحياة، لقيت، لقيت الألد
تغيرها، وده يعني التعب والشقا

عجبي !!

عجبي على العجب العجيب العجيب
لما الحقيقة تطل بعد احتجاب
وتروق وتحلا وفجأة تصبح مفيش
كمثل طرايش بحر ياما خد وجاب

عجبي !!

في الهو ماشي يا بهلوان إيش إيش
يا فراشة منقوشة على كل وش
شقلبت عقلي وعقلي شقلبني

وكنـت باحـسـبـني بـقيـت ما انـدهـش

عـجـبي !!

وقـفـت سـاعـة الصـبـح باغـسـل سـنـانـي

قـالـت لـي شـايف قـوـتي ولـمـعـانـي ؟

إيش تـطـلـب الـيـوم مـنـي ضـحـكـة أسـد ؟

والا ابـتـسـامـة إـعـلانـات أمـريـكـانـي ؟

عـجـبي !!

الـحـلـو يـمّ الـيـمّ صـابـح رايع

سـارح فـي حـضـن المـيـه سـابـح سـايـح

الـحـلـو داب فـي البـحـر . قـلـت ادوقـه

وجـدـت لـسـه البـحـر بـرـضـك مـالـح

عـجـبي !!

يا كل كـلمـة للـعـجـب فـي قـامـوس

انـسـكـلوبيـديا لـسـان عـرب أو لاروس

تـعـالوا نـجـدة . ده لـسـه فـي عـصـرنا

الشـمـس والبـحـر العـريـض بـالـفلـوس

عـجـبي !!

المـوج تـلـول تـهـبط وتـطـلـع تـلـول

يا بـحـر خـدني الشـط صـاحـبك مـلـول

والا بلاش الشط ح اعمل به إيه
ده ريحته طحلب مهري وام الخول
عجبي !!

عيني رأت مخلوق في غاية البشاعة
أنا قلت له لما تأملته ساعة :
اللذة والموت علموك اللّـنَج
وأنا علموني الفلسفة والشجاعة
عجبي !!

غطس وقب الموج نهود بمبي
من ألف جيل جمالات ما تعلم بي
يا قلبي عيب دول أمهاتنا القدام
اسـتغفر الله العظـيم ربي
عجبي !!

علقـت في المسـمار قنـاع مهزلة
ومعاه قنـاع مسأساة بحزنه ابـتلا
بصـّـيت لقيـتهم يشـبهوا بعضـهم
واهو ده العجب يا ولاد.. وإلا فلا
عجبي !!

ظهر المسيح الحي على سفح ربوة

ونزل بهالة الضيَّ وقعد في قهوة
بُصُوا. تعالوا. قالوا ؟ خليه في حاله
الناس في حالهم يا بني. مالهش دعوة
عجبي !!

لولا اختلاف الرأي يا محترم
لولا الزَّطَّتين ما لوقود انضرم
ولولا فرعين ليف سوا مخاليف
كان بيننا حبل الود كيف اتبرم ؟
عجبي !!

يا وردة قلبي معاكي في الريح لعب
لا تعبتي م الريح ولا قلبي تعب
احنا كده : نرتاح في صخب الجنون
وفي السكون بنخاف قوي ونترعب
عجبي !!

ما أنتاش بتلعب ليه يا روح بابا ؟
ولّا عسكري ولّا لص في عصابة ؟
إلعب أسد أو ديب رهيب أو غزال
دي الدنيا في نهاية المطاف غابة
عجبي !!

ورد في ورق سلوفان يا حلو أهدياك ؟
والا انقله بالطين في شتلة واجيلك ؟
الأولاني لـو وحا بحناناني
عجبي على الثاني بإيه يوحيلك ؟
عجبي !!

أنا قلبي كوكب وانطلق في المدار
حواليكي يا محبوبتي يا نور ونار
يلف مهمما يلف مـا بيكتفـيش
وتمللي نصه ليل ونصه نهار
عجبي !!

الأرض شووك أيـوه لكـين هـايش
والحمرة مش يعني الطريق حايش
دي منا السـيال. وبـشرة خـير
إن انتي عايشة. وإن أنا عايش
عجبي !!

إيه اللي خدته من مرور السنين
يا قلبي إلا دمعتك والأنين
بتنن وبتفرح وترجع تحن

مع إن مش كل البشر فرحانين

عجبي !!

أوقات افوق ويحل عني غايبا

واشعر كأنني فهمت كل الخبايا

وافتح شفافي عشان أقول الدرر

ما أقولش غير حبة غزل في الصبايا

عجبي !!

مركب ورق من نفخة تتطوَح

ركبتها والكمل بياوَح

سوحت فيها اتنين وخمسين سنة

لآن. ولا بتغرق ولا تروَح

عجبي !!

ع الجسر فُت الصبح تحت الضباب

بين اللي لسه بينغرس واللي طاب

ما اهتز قلبي لنبت طالع جديد

قد اللي ماشي. وتحت باطه الكتاب

عجبي !!

يا خالق الكون بالحساب والجبر

وخالقني ماشي بلختيار والجبر

كل اللي حيايتي زمزمة أمل
وازاي تكفيني لباب القبر ؟

عجبي !!

قاعدة قناني الخمر ساكنة وساهية
مع ابن آدم في الشبه متناهية
مفيش كده روقان في لحظه تشوفهم
وبعدا بلحظه يودوا ف داهية

عجبي !!

حتة محارة وجدتها في يوم لقية
قالت لي شوف كيف الطبيعة شقية ؟
نظرت للكهف اللي فيها ولقيت
إن الطبيعة كمان .. لا أخلاقية

عجبي !!

بلياتشو قال إيه بس فايدة فنوني ؟
وتلات وقق مساحيق بيلونوني
والطبل والزمامير وكتير الجعير
إذا كان جنون زيوني زاد عن جنوني

عجبي !!

نقطة مرارة كمان على مشروبي

ذوبها يا ساقى حسب مطلوبي
طعم الحياة. مش برضه فيها وفيها ؟
ليالي وردي ونهارات خروبي ؟

عجبي !!

وسط الحطام اتفرجوا يا أنام
تمثال ملك. ومبولة م الرخام
لثنين نحتهم نفس أسطى الحجر
وكانوا ذات يوم كتلتين لسه خام

عجبي !!

عيد. والعيال انتططوا ع القبور
لعبوا استغامية. ولعبوا بابور
وباللونيات. ونابلونيات شفتشي
والحزن ح يروح فـين جنب السرور

عجبي !!

أنا قلبي كورة.. والفراودة أكم
ياما اتنطح وانشاط.. وياما اتعكم
واقول له كله ح ينتهي في المعاد
يقول بساعتك ؟ والا ساعة الحكم ؟

عجبي !!

الضحك قال يا سم ع التكشير
أمشير وطوبة وأنا ربيعي بشير
مطرح ما باظهر بانتصر ع العدم
انشالله أكون رسماية بالطباشير
عجبي !!

أهوى الهوى وهمس الهوى في العيون
وبسمة المغرم. ودمعه الحنون
وزلات الحب نهـد الصبا
أكون أنا المحبوب. أو لا أكون
عجبي !!

يا ملونين البيض في شم النسيم
لون الحنين والشوق وخمر النديم
ما تعرفوش سايق عليكـو النبي
تلونوا الأيام بلون النعيم ؟
عجبي !!

الدنيا صندوق دنيا. دور بعد دور
الدكة هي. وهي كل الديكور
يمشي اللي شاف. ويسيب لغيره مكان
كان عرجي أو كان امبراطور

عجبي !!

قطبي العزيز راقـد على الكنبات
في نوم لذيـذ.. ويلبس الشنـبات
وأنا كل عين فـجـان مدلق قـلق
صدق اللـي قال إن الحـياة منـابات

عجبي !!

قالوا السياسة مهـاكـة بـكل عام
وبحورها يا بني خـشـنة مش ريش نعام
غوص فيها تـلقـى العـرقـانين كلهم
شـايـلين غـنايم. والخـفـيف اللـي عام

عجبي !!

سلام سلام.. سلام سلام.. سلام
كلام كلام.. كلام كلام.. كلام
هـز الـورق يا صـاحـبي كـدـهـوه
يـطـلـع كـلام سـلام. وسـلام كـلام

عجبي !!

فوق تحت. ورا قـدام. يمين شمال
في الجـو. تحت المـيـة. أو في الرمال
طـلـب الكـمال يـحـرم عـلى المـمـكن

والممكنات دول محرومين م الكمال

عجبي !!

هات يا زمان. وهات كمان يا زمان

غير بسمة الشجعان ما مني بيان

هو اللي داق الفرحة يوم ثورته

يقدر يعود ولا ثانيّة للأحزان ؟

عجبي !!

عبثاً باقول واقرا في سورة عبس

ما تلومش حد إن ابتسم أو عبس

فيه ناس تقول الهزل يطلع جد

وناس تقول الجد يطلع عبث

عجبي !!

يومي على الله تنتهي وتغيب

الشمس. وتعود تاني يوم لهاليب

زي الحياة. مأساة. ومن كترها

بقى لا انتهاءها وابتدائها عجيب

عجبي !!

علم اللّوع أضخم كتاب في الأرض

بس اللي يغلط فيه يجيبه الأرض

أما الصراحة فأمرها ساهل
لكن لا تجلب مال ولا تصون عرض

عجبي !!

أنا كائنلي أب. وكان رئيس محكمة
ستين سنة. في قضية واحدة اترمى
ستين سنة وطلع براءة وخرج
يشكي الحياة والموت لرب السما

عجبي !!

قالوا ابن آدم روح وبدنه كفن
قالوا لأ بدن. قالوا لأ ده روح في بدن
رفرف فؤادي مع الرايات في الهوا
أنا قلت : لأ . روح في بدن في وطن

عجبي !!